الباب الثالث

التغذية واضطراباتها فى مصر القديمة [1]

والآن بعد أن ناقشنا الديانة الأوزيرية وما فرضته على الأنماط الغذائية وعلى الحياة العامة - يجدر بنا النظر فى الحالة الغذائية فى مصر القديمة :

يقوم تحديد الحالة الغذائية من الناحية العلمية على قياس عناصر محددة تؤثر تأثيراً مباشراً أو غير مباشر فى نفقات المعيشة ، وفى تيسير السلع ، ومن هذه العناصر الكثافة السكانية ، وسعة الرقعة الزراعية ، وإمكانات الرى والصرف ، وفاعلية وسائل الزراعة والإنتاج ، وتوافر الموارد الحيوانية والصناعية ، ونشاط التجارة الخارجية .

يضيف الأطباء إلى هذه العوامل العامة - عاملاً آخر ، وهو ماقد يصيب العباد

---

(١) يمكن القارئ الاطلاع على صور كل الأشخاص والعاهات المذكورة فى هذا الكتاب فى مؤلف الدكتور بول غليونجى والسيدة زيب الدواخلى[٩٧]

من أمراض تعوق امتصاص الغذاء من الأمعاء ، فيعيش الإنسان جائعاً وسط اليسر ، وهذه الحالات كثيراً ما تنتج عن الإصابات الطفيلية التى ترتبط بالمناخ وبالعوامل الجغرافية عامة :

ففيما يتعلق بكثافة السكان فى مصر يبدو فى ضوء المعلومات الضئيلة وغير المحققة التى وصلتنا أن مصر لم تعان من اكتظاظ بالسكان فى غضون الدولة القديمة ، أما فى خلال الدولة الحديثة فإن مصر كانت آهلة بالناس ، وإن كان عدد هؤلاء لم يفق ما يستطيع وادى النيل تغذيته ، وقد قيل : إن عدد السكان فى عصر (سايس) - أى فى القرن السابع قبل الميلاد - كان عشرين مليوناً ، ولكن هذا التقدير غير يقينى ؛ لأنه بنى على اعتبارات تنطبق على العصور الحديثة ، ولم يرتكز إلى أى سند واقعى .

وفيما يخص العهود القريبة منا فإننا نستطيع استقراء كتابات المؤرخين الإغريق وهى على جانب كبير من الصحة بسبب اعتياد الأباطرة وبصفة خاصة البطالمة إجراء إحصاءات دورية : قدر هيردوت فى القرن السادس قبل الميلاد عدد المدن فى مصر بعشرين ألفاً ، ولكنه تحفظ إذ أضاف أن تقديره مبنى على أقاويل وصلت إليه ؛ وبعده بخمسة قرون روى ديودور الصقلى أن عدد المدن كان ثمانية عشر ألفاً قبل بطليموس سوتير ، وأنها وصلت فى عهده إلى ثلاثين ألفاً [٧٠] .

ولقد قدر بوتزر [٧١] مساحة الرقعة المزروعة فى مصر فى أواخر العصر السابق للتاريخ بستة عشر ألف كيلو متر مربع ، وهى فى رأيه مساحة تكفى تغذية عدد يتردد بين ١٠٠,٠٠٠ ، ٢٠٠,٠٠٠ مواطن ، ولكن هذه المساحة ظلت تتسع بفضل سياسة الحكام وتحسين وسائل الرى والتحكم فى فيضان النيل الذى - إذا صدق هيرودت - بدأ فى عهد مينا ، أول فرعون فى التاريخ ، ويشهد على هذا الاهتمام المبكر نقش على إناء يظهر فرعون (نعرمير) من الأسرة الأولى وهو يحرث هو نفسه

أرضاً ويحفر القنوات .

يأتى بعد المساحة المزروعة عامل آخر وهو خصب الأرض ، وهذا لا يحتاج إلى تفصيل حين نتحدث عن أرض مصر التى سميت (كمت) أى الأرض السوداء لتمييزها عن الصحراء وكانت تسمى الأرض الحمراء . ولطالما تعجب المؤرخون من خصب أرض تنتج ثلاثة محصولات فى السنة ، ولا تعتمد على المطر فى ريها ، وأشادوا بثراء مصر الزراعى (شكل ٦) . ويكفى أن نذكر أن ضيعة واحدة لأحد أمراء مدينة الكاب كانت تغذى ١٢٢ من البقر و ١٠٠ من الخراف و ١٢٠ من الماعز و ١,٥٠٠ من الخنازير ، وأن حاكماً واحداً هو رمسيس الثالث قدم ٥١٤,٦٩٨ من البهائم الكبيرة الحجم و٦٨٠,٧٦٤ إوزة إلى معابد آمون - رع خلال إحدى وثلاثين سنة . وتلك الأعداد الضخمة من الماشية تفترض وجود مراع غاية فى الخصب والازدهار .

وبالإضافة فإن مصر - منذ الدولة القديمة - على اقتصارها سياسيًّا فى ذلك العصر على حدود بلادها ، وعدم توسيع حدودها - نقول : إن مصر كانت على علاقات دائمة - وإن كانت متقلبة - مع جيرانها : النوبيين فى الجنوب ، والليبيين فى الغرب ، والفينيقيين فى الشرق ، حتى مع أهل بلاد (بونت) بالصومال الذين نراهم على جدران معبد الدير البحرى فى طيبة ، وهم يقدمون الهدايا من إنتاج بلادهم .

أما فى عهد الدولة الحديثة - حين تجلت روح الاستعمار فى مصر - فقد ازدهرت التجارة الخارجية ، وامتدت لتشمل كذلك جزيرة كريت وجزر بحر إيجه .

وإذا نظرنا الآن إلى نفقات المعيشة أدركنا قلة معلوماتنا عنها ، ولا داعى هنا إلى أن نتطرق إلى الحديث عن استعمال المصريين للعملة النقدية ، ولا عن قيمة المعايير

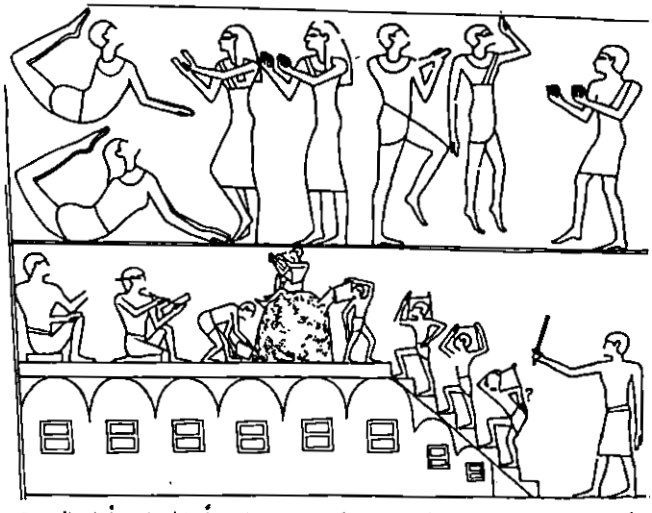

(شكل ٦) حفلات الغناء والرقص التى كانت تقام ابتهاجاً بالحصاد (أعلى الصورة) وتخزين القمح فى الصوامع (أسفل الصورة).

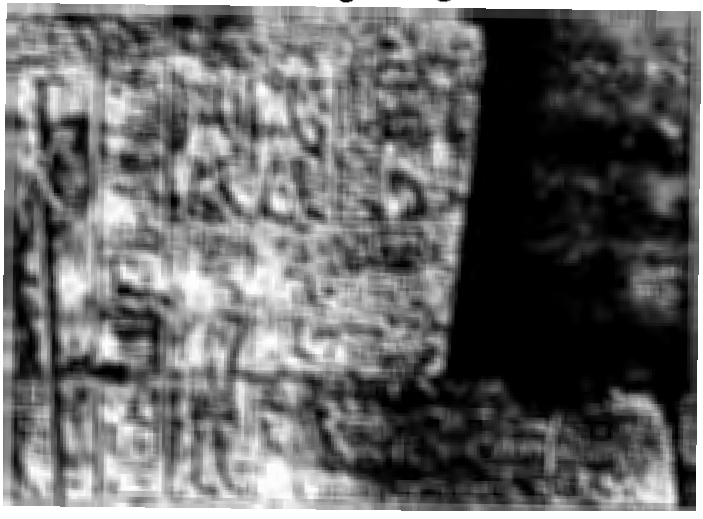

(شكل ٧) تسمين الإوز . الدولة القديمة . سقارة

التى كانت تقدر بها السلع عند التعاقد ، لكن المعروف أن الأثمان تغيرت بطبيعة الحال بتغيير الأحوال السياسية ، وكذلك الجرايات : فقد ذكر أن مئونة العمال قبل سنة ٣٨ من حكم بطليموس فيلادلف كانت توفر – على حسب تقدير ركمانز[٧٢] مقدار ٣٧٨٢ سعراً من البذور ، على حين انخفض ماكانت توفره بعد ذلك التاريخ إلى ٢٨٣٦ سعراً .

وقد يشير نصٌ متشائم برسم حياة الزارع بأقتم الألوان إلى انتشار الجوع والفقر بين الفلاحين ، غير أن المقصود منه كان التشجيع على الانخراط فى سلك الكتبة الموظفين والتشهير بجشع السلطات وأصحاب الأملاك ؛ إذ يبدو أن غذاء الشعب كان كافياً .

يقول هيردوت (٢ : ٧٧) عن المصريين إنهم : «أصح الناس عامة بعد الليبين . . . إنهم يأكلون خبزاً من القمح ذى الحبة الواحدة . . ويأكلون السمك نيئاً ومجففاً فى الشمس أو بعد حفظه فى الملح . ومن الطيور السمان والبط (شكل ٧) والعصافير التى يتناولونها نيئة بعد تمليحها ، فضلاً عن الطيور الأخرى باستثناء ما يعدونه منها مقدساً – وكل ما تبقى يأكلونه مشوياً أو مسلوقاً» . ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أنهم كانوا يجهلون الدجاج .

وتحدثنا النصوص عن الجرايات التى كانت توزع على العاملين فى الدولة أمثال ألف العامل الذين أوفدهم سيتى الأول لنقل تماثيل آمون – رع الآلهة التسعة : فقد أمر فرعون بأن يُقدَّم كل يوم إلى رسول الملك ورافع لوائه خبزٌ جيد ولحم بقر ونبيذ وزيت حلو ودهن وعسل وتين وسمك وخضر[٧٣] .

وإذا كانت هذه الجراية قد خصصت لشخص عادى فبطبيعة الحال كانت وجبات الملوك أكثر ترفاً : فما ذكرته قائمة مأكولات (أوناس) الذى اعتلى العرش حوالى سنة ٢٦٠٠ ق.م. : «لبن ، ثلاثة أنواع من النبيذ ، أربعة أنواع من

الخبز ، عشرة أشكال من الكعك ، أربعة ألوان من اللحوم ، شرائح لحم مختلفة ، لحم مشوى ، لحم الصدر والأطراف والذيل ، إوز ، حمام ، تين ، وعشرة أنواع أخرى من الفاكهة ، حنطة ، شعير ، خمسة زيوت ، وخضر طازجة [٧٤] . وقد أضافت العهود اللاحقة إلى الموائد ألواناً فاخرة من الأطعمة المستوردة من قبرص وبابل وبلاد الحيثيين وغيرها .

ولكن هذه القوائم شبه الإلهية اختلفت تماما وقوائم أكل الشعب ، ويدل على ذلك ما فعله (خوفو) إذ أرادَ تقديم الهدايا بمناسبة معجزات رويت له : لقد قدَّم ألفَ رغيف ، ومائة إناء جعة ، وثوراً كاملاً لذكرى الملك الذى وقعت أحداث القصة فى عهده ، فى حين أنه لم يقدم إلى الساحر صانع المعجزات سوى كعكة واحدة ، وإناء واحد من الجعة ، وشريحة واحدة من اللحم [٧٥] !

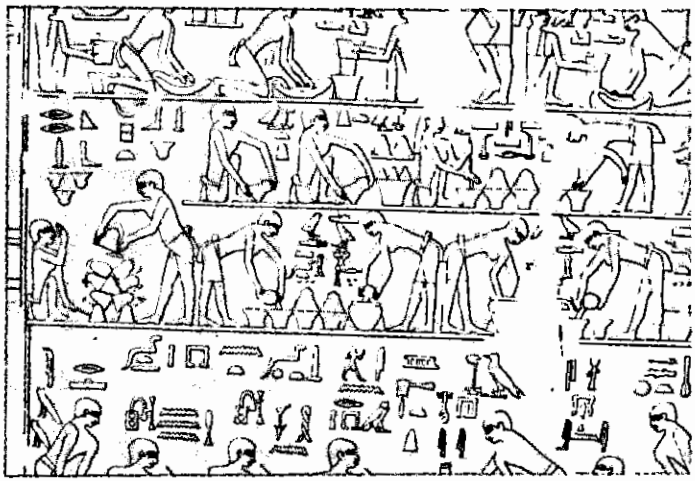

(شكل ٨) تفاصيل صناعة الخبز والجعة . الدولة القديمة . سقارة

وهنا يتحتم علينا عدم الأخذ بالروايات على أنها حقائق تاريخية ، وأقصى مثال للمبالغة ورد فى رواية الساحر (جيدى) الذى كان يلتهم كل يوم - ربما بفضل سحره - خمسمائة رغيف وفخد بقرة كاملة ومائة إناء من الجعة [٧٥] . ولنا أن نشك فى أن معدة قدماء المصريين كانت بهذه السعة .

ومع ذلك فإن مثل هذه الروايات - إذا أخذت بالحيطة والتحفظ - ترسم لنا صورة حية لحياة الشعب ، شأنها شأن قصص (ألف ليلة وليلة) و(كليلة ودمنة) وغيرها من إنتاج الخيال الشعبى . ولذا فإننا جمعنا ألوان الطعام التى ذكرت فى قصص قدامى المصريين الشعبية وتبين لنا أن أكثر الألوان وروداً هى الخبز والجعة (شكل ٨) والفاكهة والخضر (انظر الجدول المرافق) ، والشىء الذى كان له مغزى خاص هو ذلك القول الذى كان سائداً «خبز وجعة» الذى كان يشير إلى الأكل عامة مثل قولنا العامى «العيش والملح» ، والذى كان يقال أيضا للتحية .

ولا شك أن المصرى القديم - وهو فى هذا لا يختلف هو والمصرىّ الحديث -

ألوان الطعام المذكورة
فى القصص المصرية التى ترجمها ليفبر

النوع	عدد المرات
الحبوب والخبز	
شعير	٦
قمح	٤
خبز	١٥
كعك	٥
المجموع	٣٠
الخضر	
بدون تحديد	٢
عدس	٢
خس	١
خيار	١
المجموع	٦

النوع	عدد المرات
فواكه	
دون تحديد	٢
تين	٢
عنب	٢
جميز	٢
حب العزيز	١
المجموع	٩
مختلف	-
لبن	٤
عسل	١
زيت زيتون	١
المجموع	٦

النوع	عدد المرات
لحوم	
دون تحديد	٣
لحم مسلوق	١
بقـر	٦
كبد بقر	١
مواشٍ	٢
ضأن	١
خنزير	١
حيوانات صغيرة	٢
حيوانات برية	١
سمك	١
المجموع	١٩

النوع	عدد المرات
طيور	
دون تحديد	٤
طيور مائية	١
طيور مشوية	١
المجموع	٦
مشروبات	
جعة	١٦
نبيذ	٥
المجموع	٢١

(شكل ٩) قرابين للموتى . اوزتان . بصل ، خس ، فخذة . قرع ، ارغفة مختلفة .
وجرتان . مقبرة من الأسرة ١٨ من أبيدوس . متحف القاهرة . رقم ٣٤٠٠٢

لاشك فى أنه أحب مأكله ومشربه ، فقد غطى جدران مقابره ، وكان يسميها «بيوت الخلود» بما كان يشتهى أكله فى حياته الأخرى . (شكل ٩) . ونرى فى هذه المقابر مناظر جميلة للفلاحة الوسيمة وهى تعجن ، وللنحال وهو يجنى العسل من خلايا لا تكاد تختلف هى والخلايا الريفية الحديثة ، وللكاهن الطبيب وهو يشرف على الذبائح أو يشم دماً يقدمه له القصاب على أصابعه ، ليحكم على صفائه ، ولحانوت القصاب حيث تعرض شرائح اللحوم ، ولصيد الطيور ونزع ريشها تو صيدها ، ثم شيها ، أو لصيد الأسماك وفتحها لتجفيفها فى الشمس واستخراج البطارخ منها (شكل ٤) ، وللفلاح وهو يجنى التين من الشجر على حين تخطفها منه القرود ، أو للحصاد الذى كان يعد عيداً مصحوباً بنغمات عازف الناى (شكل ٥) ، أو بآلاف الصور التى لا يتسع وقتنا لعرضها حتى إذا خصصنا لها مؤلفاً كاملاً .

أما بالنسبة للأطفال فكانت مدة الرضاع ثلاث سنوات ، وكان يُلْجأ عند الضرورة إلى مراضع محترفات ، وهؤلاء كانت مهنتهن – على الأقل فى عصر البطالمة – خاضعة لقوانين دقيقة . وقد ذكرت بردية إبرز (٩٣=٧٨٨ ، ٩٤=٧٩٦) طريقة التمييز بين اللبن الصالح وغيره بالشم .

ويمكن عامة قبول قول هيردوت : إن مستوى التغذية فى مصر كان جيداً حين قال : إن المصريين أصح الناس بعد الليبيين (٢ ، ٧٧) وهذا ما تشهد به آلاف التماثيل والصور التى تصورهم فى أجمل أشكال الرجولة أو الأنوثة .

ولكن : ما قيمة هذه الصور؟ وهل تعدل قيمتها قيمة الوثائق التاريخية ؟ وفى رأيى أن هذه الأجسام المفتولة العضلات ، المثالية تشريحيًا وفنيًا ، الشبيهة بأجسام فلاحينا – كانت صوراً مستوحاةً من الطبقات العاملة التى درب أصحابها على العمل الجسمانى الشاق وعلى تناول طعام هزيل . أما الطبقات الغنية فإن الأدلة تشير

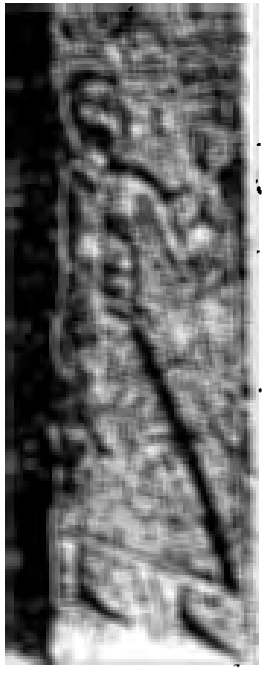

(شكل ١٠) صورتان للشخص نفسه عنخ - ما - حور من مقبرته فى سقارة

إلى تفشى البدانة بينها :

من هذه الأدلة أننا كثيراً ما نجد صورتين للشخص الواحد على حجر واحد : تصور إحداهما وهى القريبة من داخل المقبرة – المتوفى على النحو الذى يرغبه لنفسه فى حياة الخلود : أى نحيفٍ وكأنه بطل رياضى على حين تصوره الصورة الأخرى فى اتجاه الدنيا البائدة بديناً كما كان فى الحقيقة (شكل ١٠) والسبب فى هذا إتاحة تعرف الروح على جسمها حتى تتقمصه وتنعشه من جديد !

نرى الرغبة فى إخفاء معالم المرض والتشوه لتجنب الاحتفاظ بها فى الحياة الأخرى ، نراها مجسمة فى صور فرعون (سبتاح) الذى نعرف من مومياه المحفوظة بمتحف القاهرة أنه أصيب بضمور فى ساقه ، فلم يشأ أن يسجل هذا التشوه على صوره الرسمية التى كانت – حسب ظنه – تدب فيها الحياة بفعل السحر بعد موته .

وكانت البدانة بغيضاً فى نظر المصريين حتى فيما يتعلق بالحيوانات المؤلهة . وفى هذا الصدد يقول بلوتارخ [٧٦] عن الكهنة ! إنهم لا يحبون أن تكون عجول آبيس سمينة ، بل ولا يريدون هذا السمن لأنفسهم ، لأن أجسامهم – وهى كساء أرواحهم – يجب أن تكون خفيفة لا يسيطر فيها العنصر البائد على العنصر الإلهى .

ولكن هذه الاعتبارات لم تحل بين الفنانين وبين تصوير البدانة . بل ربما كان يروقهم أن يمضوا فى تصويرها سخرية من الأغنياء والكسالى . ونرى هذا فى صورة لحارس باب معبد وكأنه بواب من بوابينا أو لطاهى مقبرة عنخ – ما – حور ، أو لربان زورق جالس بين خدم انشغلوا بتقديم الطعام له .

أما فيما يتعلق بتصوير الأجانب فقد تمتع الفنانون بحرية تامة ، ولذا فإن تمثال هروا الحبشى نموذج للبدانة ، وكذلك تمثال (أريجاد جادن) ، ونحت ملكة بنط الصومالية التى رسمت لها رسوم هزلية (كاريكاتورية) فى عهدها .

ولا شك فى أن البدانة نتجت فى هذا العصر – كما تنتج اليوم – عن حب

المصريين لطيبات الدنيا. وقد روى هيردوت أنهم فى ولائمهم بعد أن ينتهوا من الأكل – يطوف بهم رجل يحمل فى نعش جثة من الخشب تشبه تماماً جثة آدمية ، ويعرضها على الحاضرين ويحثهم على الشرب والتمتع ؛ لأنهم سيصيرون مثلها بعد الموت ! (٢ ، ٧٨) .

ولم يكن بعض الملوك ليشذوا عن هذا السلوك : نقرأ عن الملك أمازيس أنه كان ما يكاد يفرغ من تصريف أمور الحكم حتى ينكب على الشراب والمزاح واللهو مع ندمائه . . ولما أبدى أصدقاؤه سخطهم أجابهم : إن الأقواس إذا ظلت مشدودة انقطعت ، والإنسان إذا ظل جاداً ولم يلْهَ اختل وعَتِه (هيردوت ٢ ، ١٧٣) .

وكانت الجعة – ولم تختلف هى و(البوظة) إلا قليلاً – الشراب الشعبى الأول ، كما أنها ظلت على مدى القرون شراب شعوب العالم قاطبة المفضل ، وهناك ما يدل على أنها فضلت على الماء الذى عد مصدراً للأمراض لعدم الإدراك لطبيعة التلوث وللجهل بوسائل تطهير مياه البرك والآبار ، فكان إنتاجها – وإلى درجة أقل من إنتاج النبيذ – ضخماً . وإننا لنرى الفتيات يصفين العجين لتحضيرها ، ونرى عمال الكروم يدهسون العنب وهم ممسكون بالحبال وكأنهم يخشون الانزلاق من تأثير أبخرة التخمير وكان النبيذ يوضع فى جرات تسجل عليها سنة الإنتاج ، ودرجة الجودة ، والنوع ، والكرم الذى استخلص منه ، واسم صاحبه ، واسم المصنع .

غير أن النبيذ كان مشروب الأعيان ، ونرى سيدة فى مأدبة تأمر الساقى : أعطنى ثمانى عشرة كأساً من النبيذ ! إنى أريد مواصلة الشراب حتى الثمالة ! إن حلقى جاف «جفاف القش» ! وفى مقبرة أخرى واصلت سيدة «أنيقة» الشراب حتى تقيأت ؛ كما نشاهد فى رسم هزلى حارس مخزن خمور وهو فى حالة تخدر

عميق ، فلا يستجيب للقارعين على باب القبو ، ويتشدق عندما يقول أحدهم : «إنه نائم من الخمر» فيجيب : «لا ، لست نائماً» ! .

ولذا فإن أدب هذا العصر لم يخل من النصائح للنهى عن الشرب أو السخرية من مدمنيه : «إنك تتجرجر من ردهة إلى ردهة ؛ لقد فاحت رائحتك بالجعة ، إنك كالمقذاف المكسور ، كالبهلوان على حائط . . انظر إلى نفسك . . غريق فى العطر وأكاليل الزهور حول عنقك ، تُطَبِّل على معدتك ، تترنح على الأرض بين القمامة ! » .

وجاء ضمن نصائح (آنى) الحكيم : «لا تلتزم من قبيل الزهو بشرب أبريق كامل من الجعة ؛ فإنك (بعد ذلك) إذ تتكلم يخرج من فيك قول لا معنى له ، وإذا سقطت وانكسرت ساقك فلن تجد من يمد إليك (يده) . وإخوانك فى الشراب سيقفون ويقولون : ابعدوا عن هذا الأحمق ! . وإذا حضر إنسان ليبحث عنك ليستجوبك وجدك طريح الثرى مثلك فى هذا مثل الطفل الصغير ! . »

كان من الطبيعى إذن أن يصاب الكثيرون بأمراض الإفراط فى الغذاء .

وقد كشف روفر [٧٧] وإلبوت سميث [٧٨] ولونج [٧٩] بتشريح المومياوات عن مرض تصلب الشرايين الذى يُعزَى اليوم إلى ارتفاع نسبة الدهنيات فى الدم (شكل ١١) ، ومن المومياوات المصابة به مومياوات رمسيس الثانى ومنبتاح وغيرهما ، وقد أدت وسائل الفحص الحديث بالأشعة السينية إلى الكشف عنه فى مومياوات كثيرة أخرى [٨٠ ، ٨١ ، ٨٢] حتى فى مومياوات ترجع إلى ما قبل التاريخ [٨٣] . ولا تخالف معالم هذا التصلب المجهرية بمعالمه فى عصرنا هذا ، فقد وجد ساندبس [٨٤] التغيرات نفسها ، وهى ضيق الممر فيها ، وترسب مواد دهنية فى أغشيتها وازدواج الغشاء المرن الداخلى وتليفه ، وتكلس الغشاء الوسيط ! ووُجِدَ حصى الصفراء فى جثة كاهنة من كاهنات آمون من الأسرة ٢١ ، كما

(شكل ١١) شرايين مومياء تبين تحت المجهر كل مظاهر تصلب الشرايين

كشف عنها بالأشعة فى جثة أخرى . ووجدت آثار تقوس فى جثة ترجع إلى أوائل العهد المسيحى [٧٧] .

أما حصَى المسالك البولية فقد عثر على عدد منها وإن كان نادراً : حالتين بالمثانة وثلاث حالات بالكلى من بين ٣٠,٠٠٠ جثة مصرية ونوبية [٧٨ ، ٧٩] ، ولا ندرى هل كان هذا الحصى من النوع الناتج عن اضطرابات التمثيل الغذائى أو عن البلهارسيا ، أو عن أسباب أخرى ؟

ويمكن تأويل بعض الملاحظات الواردة فى بردية إبرز عن إدرار البول (٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠) بأنها تخص البول السكرى . ووصف لها العسل ، ولو أن المصريين فطنوا إلى حلاوة طعم البول فى هذا المرض لقلنا : إنهم وصفوا العسل علاجاً تعويضيًّا ، ولكنهم لم يتركوا أى نص يسمح لنا حتى بمجرد تخمين هذا .

* * *

وإذا انتقلنا من كثرة التغذية إلى نقصها جاز لنا أن نتساءل : إذا كان الخير فى مصر وافراً فهل يمكن حدوث أمراض نقص التغذية ؟ والإجابة هى : أن مجرد معرفة ألوان الأطعمة المتوافرة لا يكفى معرفة كنه الغذاء ؛ فقد تعم المجاعة لأسباب خارجية كالحروب والأعاصير ، وقد يصاب الناس بأمراض سوء الامتصاص . وقد تهمل بعض الأطعمة نتيجة للجهل أو للحظر .

تعتمد مصر اعتماداً كلياً على النيل لرى أراضيها ، وقد حاول الحكام منذ عهد مينا – على حسب قول هيردوت(٢، ٢٩٩) – بناء السدود وإقامة المشروعات الكفيلة بتنظيم انسيابه ، وخصصوا كبار الموظفين لمراقبته ، يحملون ألقاب محافظ البحيرات ، ومدير السدود ، ومراقب لصرف ، والمشرف على الفيضان وعلى أراضى «طرح البحر» [٨٥] ، وهذا لأنهم اختبروا نزوات (هع – بى) إله النيل الذى زادت بدانته وحجم ثديه كما زاد كرمه ، وهى نزوات «زيادة كانت أو نقصاناً – طالما أنزلت بالدولة أبشع النكبات ! وقد وردت نصوص تصف بشكل واقعى آثار هذه الكوارث ، ولذا جنح الحكام – كما فعل سيدنا يوسف – إلى جمع الحنطة فى سنى الرخاء لتوزيعها خلال سنى القحط ، ورسموا الصوامع التى تحفظ بها فى أشكال من كل العصور ، والفلاحون يملئونها من أعلى ويفرغونها من فتحات من أسفل .

وربما كان أحد هذه الأحداث سبب النحافة الجماعية الرهيبة التى أصابت بعض رعاة البقر فى مقابر مير ، أو الأشخاص الذين رسموا على نحتٍ فى سقارة قارنه دريوتون [٨٦] مع النصوص التى تصحبه بوصف عبد اللطيف البغدادى للمجاعة التى أصابت مصر سنتين متواصلتين فى القرن الثالث عشر الميلادى نتيجة لعدم وفاء النيل .

والسبب (الثانى) لحدوث أمراض سوء التغذية مع وفرة الغذاء هو سوء الامتصاص ، وأهم أسبابه الإصابة بالطفيليات والديدان ، برهن على هذه الحقيقة الدكتورة وازلين وزملاؤها ، إذ أثبتوا بالبحث والتحليل وجود نقص واضح فى الحديد والزنك والفيتامينات عند المصابين بالديدان [٨٧] .

وذكرت بردية إبرز أسماء عدد من الديدان ، وكشف روفر [٧٧] عن بويضات البلهارسيا البولية فى أنسجة بعض المومياوات. ولكننا لا نعرف شيئاً عن البلهارسيا المعوية التى تفوق الأولى من حيث آثارها على التغذية ، ويمكن التخمين بأنها لم توجد فى الصعيد - كما هى الحال اليوم - بسبب طريقة الرى المتبعة فيه ، وعلى العكس من ذلك فإن الدنا - بسبب اتساع المستنقعات المنتشرة فيها - كانت بلا شك تكفل لهذا النوع من البلهارسيا بيئة ملائمة .

وقد وجد روفر كبداً واحدةً متليفة ولكنه لم يذكر سبب تليفها ، وهناك بعض صور فى مقبرة ميحو بسقارة تتميز فيها الأشخاص بانتفاخ البطن والفتق السرى وتمدد الصفن كما لو كانوا يعانون من تليف الكبد والاستسقاء .

ويعزز هذه الفكرة رسمُ آخرين فى المقبرة نفسها بثديين كثدى النساء وبأعضاء تناسلية متضخمة تضخماً غير طبيعى ، وهاتان الظاهرتان - أى تضخم الثديين والأعضاء التناسلية - قد تسببها البلهارسيا الكبدية والبولية ، كما يعزز هذا أيضاً قصر هذه المناظر على أشخاص يعملون فى المياه الراكدة كالصيادين وحاملى البردى .

وقد دار حوار طويل حول حقيقة مرض سمى باللغة المصرية القديمة (عاع) تشمل أعراضه - كما وصفتها النصوص - : انتفاخ البطن وألم البطن وخفقان القلب الذى ربما يقصد به عثرة القلب ، وهى أعراض الأنيميا التى تنجم عن

الإصابة بالديدان أو بالبلهارسيا التى هى عادة إصابة مزدوجة : أى بأكثر من دودة واحدة ، وقد أضاف جونكير[٨٨] وشويتهاوزر[٨٩] إلى هذه الأعراض من جانبهما وبدون مبرر البولَ الدموىَّ ، لا لسبب إلا لورود نبذة عن (عاع) بين وصفة لنزف الرحم وأخرى لنزف الشرج ، فأكدا أن وضع العاع بين الشرج والرحم يشير إلى أن المقصود به هو النزف البولى ، وأن (عاع) هو البلهارسيا – مع أن البردية التى وردت بها هذه الفقرة – وهى بردية سحرية وليست بردية طبية بالمعنى الصحيح – لم تتبع أى ترتيب تشريحى .

وأضافا – بجسارة – أن المصريين عرفوا دودة البلهارسيا بانين حجتهم على ورود صفة دواء قيل عنه : «يتعطاه شخص ببطنه دود ، وأن (العاع) هو الذى تسبب فى ظهوره» هذا مع أن النص نفسه يؤكد أن (العاع) هو سبب وجود الدود ، وليس بالعكس ، ولذا فقد ذهب علماء اللغة المصرية أمثال جرابو وفون داينس [٩٠] إلى أن (عاع) كان فى تصورهم روحاً شريرة أو عملاً سحرياً يحدث المرض . ونضيف فنقول : إذا كان المصريون القدامى قد ربطوا حقيقة بين (عاع) والديدان فإن الديدان التى شاهدوها إنما كانت الديدان المعوية التى تسهل مشاهدتها فى الإفرازات وليست دودة البلهارسيا التى لا تكاد ترى وهى مختبئة فى الوريد البابى والتى تبلى بسرعة بعد الوفاة [٩١] .

ولم يرد أى وصف للبلاجرا ، وكان أول من ذكر اسم هذا المرض فى مصر (سونينى) فى سنة ١٧٩٩ [٩٢] حين أشار إلى حب النيل متسائلاً : هل ذلك هو اسم البلاجرا المحلى ويرجع ذلك الخطأ إلى جهله باللهجة المصرية وبحقيقة ما نسميه اليوم حمو النيل أو حب النيل .

أما أول من وصف البلاجرا وصفاً صحيحاً فى مصر فهو (برونربك) فى سنة ١٨٤٧ [٩٣] .

وقد يكون ظهور هذا المرض فى هذا التاريخ نتيجة لدخول زراعة الأذرة الشامية فى مصر ؛ فقد سجل الرحالة فورسكال فى ملاحظاته التى نشرها فى سنة ١٧٦١ أنه شاهد زراعة الأذرة الشامية فى مصر ، وثبت أن إنتاج الأذرة كان ١٣,٣٨٢ طنًّا فى سنة ١٨٣٣ : أى قبل وصف (برونر) بخمس عشرة سنة ، الأمر الذى يشير إلى أن الأذرة الشامية دخلت مصر فى القرن السادس عشر الميلادى آتية من مركز زراعتها الأصلى بأمريكا الوسطى .

ومن أمراض سوء التغذية الأخرى : ذكرت بردية إبرز (رقم ٣٥١) مرضاً سمى (شارو) ، وكان هذا المرض يعالج بوضع عصارة الكبد على العين ، وبما أن اليونانى ديوسقوريدس وابن سينا وابن النفيس وصفوا هذا العلاج نفسه لغشاوة الليل ، بالإضافة إلى أن الكبد تحوى كميات كبيرة من الفيتامين (أ) الذى له فائدة معروفة فى علاج غشاوة الليل - فإنه يمكن الأخذ بالرأى القائل : إن مرض (شارو) كان مرض غشاوة الليل الناتجة عن نقص فى فيتامين (أ) ثم إنه ورد اسم مرض آخر هو (ونم - ن - سنف) ، ومعنى هذه العبارة (آكل الدم) ، وهذا المرض يصيب فم المعدة وداخل الجسم واللثة ، وقد ترجمت هذه العبارة (بالأسقربوط) .

أما الكساح فإنه لم يذكر له وصف ، كما أننا لا نعرف أية مومياء مصابة به من بين آلاف المومياوات التى تفحصها العلماء بالتشريح أو الأشعة السينية . ولكن روفر نشر صوراً لأناس مشوهين ونسب تشويههم إلى هذا المرض ؛ كما أن أطراف إحدى التابعات على زورق من كنز توت - عنخ - آمون ملتوية وكأنها مصابة بهذا المرض .

ومن الآفات المرتبطة بالتغذية والتى قد ترجع إلى نقص الكالسيوم أو الفيتامين د ، أو إلى تناول كميات كبيرة من السكر أو طعام لين - تسوس

الأسنان ، وهذا المرض من القدم بحيث وجد فى أقدم سلالات القرود الشبيهة بالإنسان التى ترجع إلى ما قبل تاريخ البشر . غير أنه أيضاً من أمراض الحضارة التى لم تتفش إلا عندما انتقل الإنسان من حياة الصيد والجمع إلى حضارة الزراعة والاعتماد على البذور ، وبردية إبرز وصفة الحشوسنة مسوسة (إبرز٧٤٣) ، إلا أن تفحص الجثث بيّن أن التسوس كان نادراً فى الدولة القديمة فى حين انتشرت البيوريا والتآكل بالاحتكاك والخراريج السِّنّخية والالتهابات حول الأسنان . ولم يَتَفَشَّ التسوس إلا خلال العصور القريبة وبين الطبقات الثرية نتيجة لتناول المأكولات اللينة والحلوى . وكان التسوس يعالج على حسب ما ورد ببردية إبرز - بحشو الأسنان المصابة بخليط من مادة راتنجية وأملاح معدنية ، ووجدت بعض الأسنان المتخلخلة مربوطة بجاراتها بسلوك من الذهب أو الفضة (شكل١٢) .

وآخر مظهر من مظاهر نتائج سوء التغذية التى أعرض لها تضخم الغدة الدرقية .

وهذه الآفة لم يصفها أى طبيب زار مصر حتى علماء حملة نابليون ، وأول ذكر لها جاء فى مقال الأستاذين الدكتورين مصطفى عمر ودولى [٩٤] ، وأول من فطن إلى استيطانها فى أجزاء من مصر هو أستاذنا جميعاً الدكتور على باشا إبراهيم فى سنة ١٩٣٢ [٩٥] ، أما قدماء المصريين فيبدو أنهم جهلوا حتى مجرد وجود الغدة الدرقية ، فلم يذكروا لها اسماً ، غير أن طريقة النحت العالى المستدير التى مارسها الفنانون فى العهد البطلمى أبرزت الأعناق بصورة توحى بوجود «جواتر» ، مما أدى إلى جزم يازون [٩٦] بأن كليوباترا كانت مصابة به وهو - بلا شك - مخطئ فى هذا التشخيص ، إذ إن جميع فراعنة ذلك العهد صوروا بهذه الطريقة نفسها .

وهذا مثال آخر لخطر التسرع كاستنتاج وجود مرض من مجرد خروج رسم عن التقاليد المعهودة ، وقد أشرنا آنفا إلى أمثلة أخرى مرد انحرافها إلى اختلاف العقائد

(شكل ١٢) سنة ربطت بجارتيها بوساطة سلك من الفضة

والأنماط والأهداف . ولعل ذلك يدعونا إلى الاعتماد أولاً وقبل كل شيء على تفحص البقايا البشرية نفسها ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

أما السبب الأخير لسوء التغذية برغم كثرة أنواع الطعام فقد يكون التحريم الدينى أو القبلى ، وهذا ما تناولناه فى الباب السابق .